خاتمــــة

نحو نَيْل الاعتراف

لقد عاشت الإمبراطورية الرومانية في القرن الميلادي الثالث أزمة كانت من أصعب الأزمات التي عرفتها في تاريخها كله، وكان من البدهي أن تنعكس تلك الأزمة على أوضاع المسيحيين أيضاً. فالقبائل الجرمانية البربرية كانت قد أخذت تجتاح حدود الإمبراطورية منذ أواخر القرن ٢م. ونزعت المقاطعات نحو الاستقلال عن روما. واشتعل من جديد صراع مرير على السلطة. فقتل خليفة الإمبراطور كومّود بعد مرور سبعة وثمانين يوماً على اعتلائه العرش. وأعلن الحرس الإمبراطوري الذي قتله إنه سوف يمنح العرش لمن يدفع لهم أكثر. ولكن الذي اشترى التاج لم يعمر على العرش طويلاً. وبات مصير الصراع على العرش يتقرر الآن على أيدي الجيوش الرومانية المعسكرة في المقاطعات، وقد سعى كلّ منها إلى تتويج صنيعته. ولكن «أباطرة الجنود» كان يعقب واحدهم الآخر مباشرة، وثمة مقاطعات توّجت أباطرة لها: غاليا على سبيل المثال. وعلى صعيد آخر رفض كبار مالكي الأرض الخضوع للسلطة المركزية، وشرع الموظفون ينهبون السكان. وفي القرن ٣م اشتعلت في بعض أجزاء الإمبراطورية انتفاضات العبيد والكولونات. وغني عن البيان القول، إن هذه الأحداث كلّها أفضت إلى حصول تبدل كبير في السيكولوجيا الاجتماعية للسكان، وفقدان الثقة نهائياً في عقلانية النظام العالمي القائم. فتقاطر كثيرون إلى اعتناق المسيحية. بيد أن حالة هذه الديانة كانت معقّدة بدورها: لقد كان اللاهوتيون المسيحيون بصدد صياغة عقيدة آرثوذكسية، فاشتد الخلاف بينهم

حول قوانينها الأساسية. ضف إلى هذا، أن علاقات شديدة التعقيد كانت نشأت بين المسيحيين والسلطة الإمبراطورية التي كانت قد بدأت حملة ملاحقات عامة ضدهم في القرن ٣م.

لقد شهدت الحقبة الزمنية التي نحن بصددها، ظهور أعظم اللاهوتيين المسيحيين، وكان هؤلاء يمتلكون ناصية الفلسفة القديمة ونجاحاتها (مع أنهم رفضوا عقلانيتها)، لا سيما الأفلاطونية الجديدة. فقد قال كليمينت الإسكندري، إن الفلسفة القديمة (= فلسفة العصر الإغريقي- الروماني- م)، أعدّت طريق المسيحية؛ ولكن، غني عن البيان أن الفلسفة لم تتطرق إلى العقائد الأساس. فواصل اللاهوتيون، ومن ورائهم جماهير المؤمنين، انشغالهم بالمسألة المتصلة بجوهر يسوع والثالوث: العلاقة بين الآب والابن، والروح القدس. ورأى أوريجينوس أن يسوع «اللوغوس»، هو ابن الإله، وهو نفسه إله؛ وإن الإله الأب قد خلق الروح القدس عبر المسيح؛ ثم دعاهم أوريجينوس بكلمة دخلت بعد ذلك العقيدة: أقانيم. وكان ترتوليان أول من أدخل مفهوم الثالوث اللغة اللاتينية (Trinitas)، ويعني هذا المفهوم وحدة الأقانيم الثلاثة: الآب، والابن والروح القدس المنبثق من الآب عبر المسيح. لقد أعلن الأرثوذكسيون وحدة الإله في ثلاثة وجوه، لكن الجدال حول جوهر المسيح وعلاقته تجاه الآب تواصل على امتداد القرن الثالث الميلادي كلّه. وحسب يوسفوس في «التاريخ الكنسي»، أن بولس السميساطي (سوريا) لم يقرّ إلاّ بالطبيعة البشرية ليسوع، التي وجد فيها اللوغوس المرسل من فوق. ولقصة الصراع بين بولس والأرثوذكسيين مدلولها الخاص: كان بولس يحظى بحماية زنوبيا ملكة تدمر السورية، الأمر الذي أسقط في أيدي قادة الكنيسة الآخرين وجعلهم عاجزين عن فعل أي شيء معه. أمّا بعد أن استولى الإمبراطور أورليان على تدمر وأخضعها لسلطته، فقد طلب هؤلاء مساعدته ضد بولس. ومع أن أورليان لم يكن مسيحياً إلاّ أنه سلب بولس مرتبته الكنهوتية، وأصدر تعليمات تعطي أساقفة روما وإيطاليا فقط، حق تعيين قادة الكنائس المحلية. ومن المشكوك فيه تماماً أن تكون المشاحنات العقيدية أثارت أي اهتمام لدى أورليان، لكنه كان يسعى لاستقطاب رعاة المسيحيين في روما وفي تدمر معاً. بيد أن أفكار بولس السميساطي لم تندثر. ففي القرن ٤م. أعلن الكاهن الإسكندري آريوس عن تعاليمه التي تقول، إن الإله واحد أحد خلق كلّ شيء، وأن المسيح نفسه مخلوق. لكن أساقفة مصر لم يوافقوه الرأي، إلا أن تعاليمه شاعت في بعض المقاطعات (ثم في أوساط عدد من القبائل الجرمانية). وفي هذه الظروف سعى الأساقفة إلى تقوية التنظيم الكنسي، وزرع التربية المسيحية في تربة العائلة: أخذت تنتشر معمودية المواليد، لأنهم من وجهة نظر اللاهوتيين، مولودون بالخطيئة الأصلية. وبات على الراشدين أن يعدوا إعداداً

خاصاً قبل المعمودية ويخضعوا لاختبار. وجرت محاولات جدّية لترسيخ مركزية الإدارة الكنسية وتقويتها، فظهرت الأبرشيات التي امتدت سلطتها على مقاطعات بكاملها، وعقدت المجامع التي ضمت عادة أحبار عدد من المناطق. ولكن، كما تبيّن من قصة بولس السميساطي، فإن أياً من الأرثوذكسيين وخصومهم لم يكن قادراً بمفرده على أن يحقق النصر على الآخر. فلتحقيق وحدة التعاليم المسيحية، وبناء تنظيم كنسي واحد كان لا بدّ من الاستعانة بالمؤسسات السلطوية، وكان هذا الأمر ممكناً وقتئذٍ خاصة، لأن المسيحية لم تكن ضدّ الأباطرة كأباطرة، ولم يقتصر هذا الموقف على اللاهوتيين ورجال الكنيسة فقط، إنما تعدّاهم ليستقرّ في وعي جماهير المؤمنين الذين لم يعد بمقدورهم أن يتخيلوا وجودهم في هذا العالم من غير وجود سلطة الأباطرة، فنسجوا صوراً لأباطرة حكموا يوماً ما وكانوا حماة للمسيحيين. ولكنّ عقد تحالف مع السلطة كان يتطلب بالضرورة أن تدرك هذه السلطة مدى أهمية الدين الجديد وضرورة الاعتراف به. بيد أن حالة عدم الاستقرار التي كانت تعاني السلطة الإمبراطورية منها في القرن ٣م، أنتجت مواقف سياسية متقلبة اعتمدها الأباطرة الذين يجدّون في البحث عن سند إيديولوجي، في إحياء التقاليد القديمة حيناً، وفي فرض الديانات الشرقية حيناً آخر (لقد حاول أورليان أن يجعل عبادة «إله الشمس الذي لا يقهر»، عبادة رسمية). لقد تراوحت سياسة الأباطرة تجاه المسيحيين بين الاهتمام الحذر، والتعاطف وصولاً إلى الملاحقات والتنكيل.

بازيليكا سانتا - ماريا ماجوري في روما. منظر داخلي

عمادة يسوع. من اليمين يوحنا المعمدان، من اليسار إله مائي، رمز نهر الأردن. موزاييك من كنيسة آريوسية في رافينا

وقد أدى تعقيد الوضع داخل المسيحية وخارجها إلى انتشار حركة التنسك: انعزال بعض الدعاة في أماكن معينة، وبراري، وكهوف حيث عاشوا فيها حياة زهد وتقشّف، سعياً منهم لإنقاذ أنفسهم بالصلاة. ورأى المسيحيون في مثل هؤلاء النسّاك (= الرهبان) قدّيسين. وفي القرن ٣م ظهرت أماكن العيش المشترك التي أقام هؤلاء فيها، وكان ذلك في مصر أولاً. ودعيت تلك الأماكن في بادئ الأمر كينوبيا (السكن المشترك)، وهي كلمة إغريقية، أما في الأماكن التي كانت تتحدث اللاتينية فدعيت الأماكن عينها مونا ستيريوس (= دير). وما لبثت الأديرة التي عبرت عن سعي كثير من المسيحيين إلى الابتعاد عن شؤون العالم ومآسيه، أن ظهرت في أرجاء أخرى من الإمبراطورية.

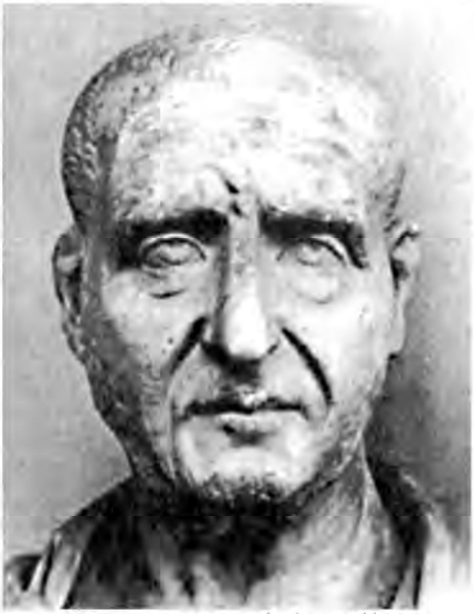
الإمبراطور ديسيوس

وعند منتصف القرن ٣م بدأت ضد المسيحيين حملة واسعة أخرى من الملاحقات والتنكيل. ففي العام ٢٤٩م أعلن الجنود القائد العسكري ديسيوس إمبراطوراً. وقد حاول هذا أن يعيد فرض النظام في الإمبراطورية، فشجع على عبادة الآلهة القدماء؛ إذ رأى في المسيحيين خطراً يهدد وحدة الدولة التي كان أكثر سكانها لا يزال متمسكاً بالوثنية، وما زاد الأمر خطورة بالنسبة لديسيوس أن المبشرين المسيحيين انطلقوا يبشرون بتعاليمهم في المقاطعات كلها، حتى في أوساط القبائل البربرية. فأصدر أمراً ألزم به سكان الإمبراطورية الأحرار كلهم بالإعلان جهاراً عن تمسكهم بالمعتقدات القديمة وعبادة الإمبراطور وتقديم القرابين بحضور شخصيات رسمية. وكانت تعطى لمن ينفذ الأمر الإمبراطوري وثيقة تثبت ذلك. وقد اكتشف علماء الآثار عدداً من مثل هذه الوثائق في مصر. ولكن كثرة كثيرة من المسيحيين رفضت أن تؤدي تلك الطقوس عادّة إياها تجديفاً، وكان عقاب هؤلاء السجن أو الموت. لقد فرّ المسيحيون من المدن، ولجؤوا إلى مختلف المخابئ، وحاولوا شراء الموظفين. وكان بين من تخفوا أسقف قرطاجة الشهير كيبريانوس. بيد أنه ثمة من المسيحيين من أدى الطقوس المطلوبة خوفاً من القتل (أطلق المسيحيون على هؤلاء صفة «هالكين»). ولم تستمر

ملاحقات ديسيوس هذه طويلاً، إذ لم يبق على العرش سوى عامين، فقد سقط قتيلاً في إحدى المعارك مع الجرمان. وبعد ذلك انشغل الحكام الجدد عن المسيحيين بالصراع على السلطة. لكن الإمبراطور الجديد فالريان ما لبث أن أطلق حملة جديدة ضدهم. فقد أصدر في العام ٢٥٧م أمراً منع بموجبه إقامة طقوس العبادة المسيحية؛ وفرض على رجال الدين المسيحي تقديم القرابين للآلهة الرومان؛ ومنع انعقاد الاجتماعات. ثمّ سلب أعضاء السينات المسيحيين ألقابهم ومناصبهم، وصادر أملاكهم، وأرسل من كان منهم يشغل منصباً حكومياً إلى الأشغال الشاقة في المناجم ومقالع الحجارة؛ كما عوقبت بالنفي أيضاً الارستقراطيات المسيحيات. وهلك في حمّى تلك الملاحقات كيبريانوس الذي كان قد نجا من ملاحقات
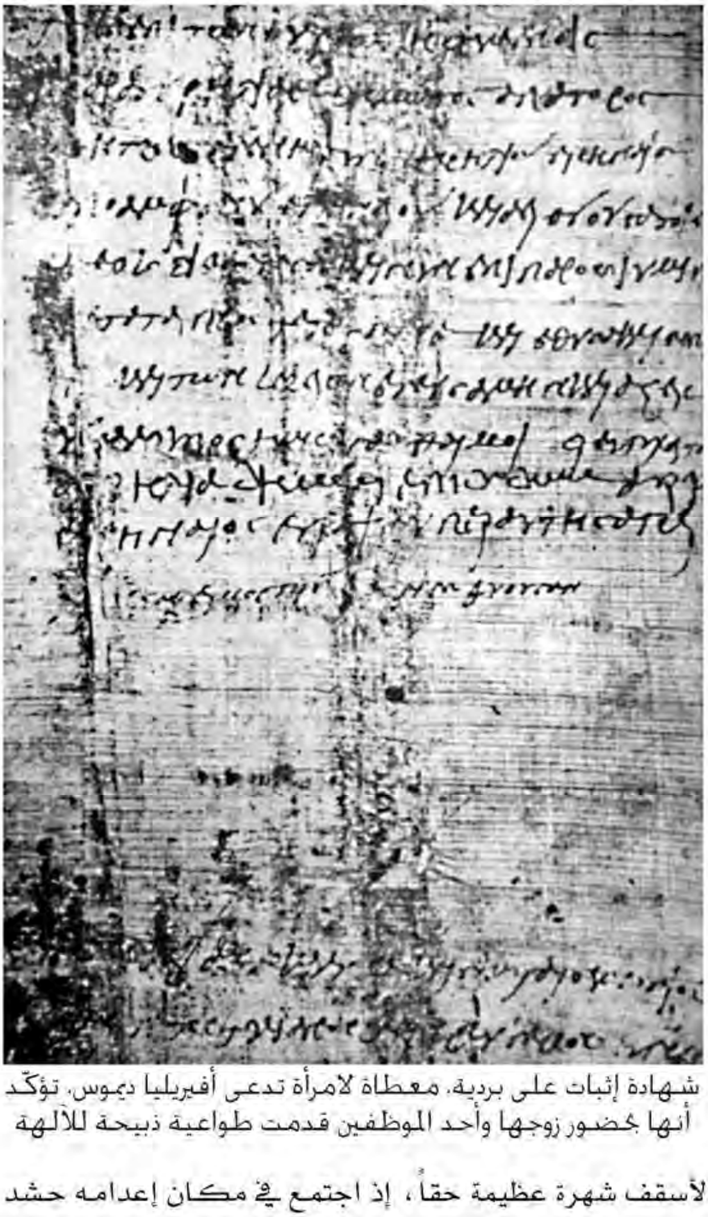
شهادة إثبات على بردية، معطاة لامرأة تدعى أفيريليا ديموس، تؤكّد أنها بحضور زوجها وأحد الموظفين قدمت طواعية ذبيحة للآلهة

ديسيوس. وقد كانت لهذا الأسقف شهرة عظيمة حقاً، إذ اجتمع في مكان إعدامه حشد كبير من المسيحيين العاديين وأخذوا يهتفون: «اقطعوا رؤوسنا مع رأسه».

وكانت قد وصلت إلينا مصادر مسيحية تحمل وصفاً لمسار التحقيق مع المسيحيين. ففي رسالة ديونيسيوس، أسقف الإسكندرية، التي ساقها لنا يوسسفيوس القيصري (التاريخ

الكنسي)، رواية لقصة التحقيق مع ديونيسيوس هذا عينه، ومع أخوة له في الدين، وكان الوالي نائب القنصل نفسه قد حقق معهم؛ إذ وصل إلينا نصّ الوثيقة الرسمية لذلك التحقيق في وثائق نائب القنصل المعني: لقد سألهم هذا السؤال الآتي: من الذي يمنع المسيحيين أن يعبدوا آلهة آخرين إلى جانب إلههم، إذا كان هذا الإله إلهاً حقاً؟ وعقاباً لهم على رفض عبادة الآلهة الوثنيين حكم على المسيحيين بالنفي. ولكنّ سؤال نائب القنصل يبين أن جوهر معتقدات المسيحيين بحد ذاته لم يكن هو الذي يقلق السلطات، إنما ما كان يقلق هؤلاء، هو سعي المسيحيين إلى الانفصال عن المعايير العامة المعتمدة لعبادة الآلهة المعترف بهم رسمياً، الأمر الذي رأت السلطة فيه عدم ولاء للإمبراطورية: لقد بدا كأن المسيحيين وضعوا أنفسهم خارج البنية الاجتماعية لذلك الزمن، وقد رأت السلطات فيهم أناساً غرباء مبهمين ولذلك خطرين. وأدى عناد المسيحيين إلى تزايد ضراوة البطش بهم، فثمة حالات أحرقوا فيها وهم أحياء. وعدّ المسيحيون قتلاهم شهداء، وجعلوا من مقابرهم مزارات أولياء (وإذا لم تكن قبور هؤلاء معروفة، كانوا يضعون لهم شواهد في مكان ما). ثمّ صار الشهداء إلى شفعاء للأحياء أمام الإله. وبذا تكون قد ظهرت عبادة الشهداء العظام.

وقد لاقى فاليريان بدوره مصيراً مأساوياً محزناً: وقع أسيراً لدى الفرس[1] الذين كانوا بدؤوا في ذلك الوقت اجتياح المقاطعات الشرقية للإمبراطورية. وفي الأسر كان فاليريان عبداً لدى الملك الفارسي، فعندما كان هذا يأتي ليمتطي جواده، كان على فاليريان أن يقترب ويحني ظهره كي يضع الملك قدمه عليه ويصعد إلى فرسه. وكان قد حلّ على عرش روما غالينوس ابن فاليريان، فأوقف ملاحقة المسيحيين، وأظهر على وجه العموم سياسة- التسامح. بيد أن القرن الثالث هذا كان القرن الذي عانى فيه المسيحيون من حملة ملاحقات وتنكيل كانت من أكثر الحملات ضراوة ووحشية. ففي العام ٢٨٤م اعتلى العرش الإمبراطوري في روما أحد أبناء

الإمبراطور دقليسيان

١- كانت قد قامت على أراضي إيران في ذلك الوقت مملكة فارسية جديدة قامت على رأسها سلالة الساسانيين.

العبيد الدالماسيين المعتوقين: دقليسيان؛ وكان هذا من أبرز القادة العسكريين والسياسيين الذين لا تلين لهم إرادة. لقد أجرى دقليسيان عدداً من الإصلاحات الهادفة إلى تدعيم سلطة الدولة، فغيّر التقسيمات الإدارية، ونجح لبعض الوقت في وضع حدّ للنزعة الانفصالية لدى المقاطعات. وطالب دقليسيان بأن تؤدى له آيات التبجيل الإلهية، وكان يهدف من ذلك إلى رصّ صفوف سكان الإمبراطورية حول عبادة شخصه (وربما يكون قد تجلى في هذا السعي، طموح كان كامناً في الوعي الباطني لشخصية تنتمي إلى فئات المجتمع الدنيا، يدفعه لكي يعلو على الأرستقراطيا الرومانية). فأمر بملاحقة كلّ تعاليم دينية لا تتوافق ورؤاه هو، وبدأ حملته المسعورة تلك بملاحقة أنصار الداعية مانو: المانويين. وكانت تعاليم مانو قد نشأت إبان القرن الثالث في إيران وانتشرت منها إلى مختلف المقاطعات الرومانية الشرقية. وقام في صلب هذه التعاليم تصور اتسمت به الغنوصية أيضاً: وجود قوى الشرّ التي خلقت العالم الزمني، ووجود إله الخير الصالح. وقد حملت المانوية تأثير كلّ من الفلسفة القديمة، والمسيحية. لقد أعلن دقليسيان المانويين خارج القانون، ثمّ ما لبث بعد ذلك أن بدأ حربه ضد المسيحيين. فأصدر في العام ٣٠٣م مرسوماً حرم بموجبه إقامة الطقوس الدينية المسيحية على أراضي الإمبراطورية. ثمّ أمر بهدم كلّ الكنائس المسيحية التي كانت قد بنيت في فترة السكينة، ومصادرة أملاك المسيحيين. وطالب الموظفون بتسليمهم الكتب المقدسة وأحرقوها (لكن المسيحيين استغلوا جهل الجنود بمبادئ القراءة والكتابة، ودفعوا إليهم بكتب أخرى). كما طرد من الجيش وجهاز الدولة كلّ من اشتبه بانتمائه إلى المسيحية، وأعدمت كثرة كثيرة من المسيحيين. ويروى أنه كان ينبغي حتى على زوجة دقليسيان أن تقدم ذبيحة علنية لتظهر ولاءها. ولكن على الرغم من الطابع الجماهيري الذي ارتدته عمليات قمع المسيحيين، إلاّ أنها لم تعط النتائج المرجوة. فقد أثارت وحشية القمع والمعاقبة، وصمود كثير من المعذبين المسيحيين صموداً أسطورياً، تعاطف الرومان العاديين الذين كانوا يعانون بدورهم من تعسف جهاز إدارة الدولة وعبء الضرائب الذي فاق طاقتهم في عهد دقليسيان خاصة. ومن جهة أخرى كانت الكنيسة قد تحولت على الرغم من التناقضات الداخلية، إلى منظمة قوية متماسكة: أخفى المسيحيون كتبهم، وهيّؤوا الأماكن الآمنة للملاحقين، وقدموا العون للعائلات المنكوبة. لقد كانت عبادة دقليسيان عاجزة عن أن تكون البديل الإيديولوجي للدين المسيحي. وفي العام ٣٠٥م، التزاماً بقراراته التي كان قد أصدرها بهدف تفادي نشوب الصراع على السلطة، تنازل

دقليسان عن العرش لنائبه غاليريوس[1] الذي وجد نفسه مرغماً على إيقاف الملاحقات. وقد اتضح فشل تلك الملاحقات، لا سيما بعد أن اشتعل الصراع على السلطة في الإمبراطورية من جديد، على الرغم من نوايا دقليسيان الطيبة لتفادي إمكانية انفراد شخص واحد بالعرش الإمبراطوري. وفي تلك الظروف كان من غير الممكن أن يجري الحديث عن أي ملاحقات ضد المسيحيين، بل طرحت على بساط البحث مسألة التحالف معهم، وفي المقام الأول مع الكنيسة بصفتها تنظيماً.

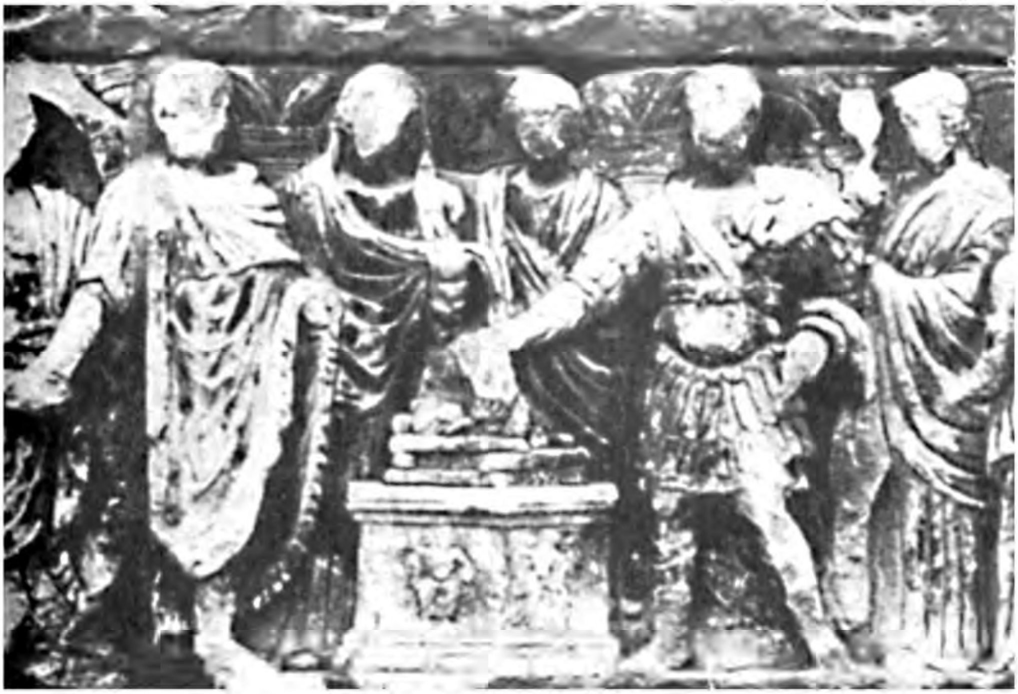

ديوكليتيان يقدم ذبيحة

وفي العام ٣١٣م أصدر قسطنطين وشريكه ثمّ خصمه اللدود في الصراع على السلطة، ليسيوس، قراراً جعل من الكنيسة المسيحية تنظيماً قانونياً علنياً. وقد عرف ذلك القرار باسم: مرسوم ميلانو. لقد منح مرسوم ميلانو المسيحيين حق إقامة طقوسهم الدينية علانية، وأباح للتنظيمات الكنسية أن تمتلك أي ملكية كانت، وأعيدت للمسيحيين

١ـ لقد قسم دقليسيان الإمبراطورية في حينه إلى أربعة أقسام: حكم هو نفسه قسمها الشرقي بلقب امبراطور، وحكم قسمها الغربي باللقب عينه صديقه ونصيره وكان لكل من الإمبراطورين مساعد بلقب قيصر سوف تنتقل إليه السلطة بعد عشرين عاماً. وكان دقليسيان هو الشخصية الرئيسة بين هؤلاء الأربعة. وبعد تنازله عن العرش اقنع دقليسيان شريكه الآخر ماكسميان بالتنحّي، لكن سرعان ما تراجع هذا عن الفكرة ودخل في صراع على السلطة.

أملاكهم التي كانت قد صودرت منهم. إذن، من حيث الشكليات الرسمية، غدت المسيحية واحدة من الديانات الأخرى العلنية وحسب. لكن حماية قسطنطين لها، لا سيما وقد خرج هذا من معركة الصراع على العرش منتصراً وبات الحاكم الأوحد في الإمبراطورية، منحها امتيازات حقيقية استثمرتها على أحسن وجه. وحسب الرواية أن قسطنطين قبل سرّ المعمودية قبيل وفاته. وكان هذا الرجل قد نشأ وتربى على عبادة «إله الشمس الذي لا يهزم»، وكانوا يرفعون إليه آيات التبجيل الإلهية، لكنه أدرك أن الكنيسة يمكن أن تقدم له عوناً فعالاً، بخاصة إذا ما وضع حدّاً للخلافات الداخلية التي تعصف بها. وحسب الرواية أن والدته يلينا كانت مسيحية، وقدمت عوناً جليلاً لأبناء دينها. وفي عهد قسطنطين كان اليوم الأخير من أيام الأسبوع مكرساً للشمس، فأعلنه الإمبراطور يوم عطلة عامة في الإمبراطورية (يوم التسوق)؛ أما بالنسبة للمسيحيين فقد كان هذا اليوم مكرساً للمسيح. ومنذ القرن ٤م. صار اليوم الخامس والعشرون من شهر كانون الأول يوم عيد ميلاد المسيح بعد أن كان عيد ميلاد إله الشمس الذي لا يهزم. واستردّت مدينة إيليا كابيتولينا اسمها السابق أورشليم من جديد.

الإمبراطور قسطنطين. رأس تمثال كبير

لقد حاول قسطنطين أن يتدخل في الخلافات اللاهوتية، لا سيما تلك التي كانت تدور بين آريوس وخصومه، فسعى إلى رأب الصدع بين الطرفين، لكنه فشل. عندئذ بادر في العام ٣٢٥م إلى دعوة المجمع المسكوني الأول في مدينة نيقيا في آسيا الصغرى، فأدان المجتمعون الآريوسية بصفتها هرطقة، واعتمدوا رمز الإيمان المسيحي الذي رسخ عقيدة الثالوث. وأعلنت فيه رسمياً وحدة الكنيسة الأرثوذكسية العالمية الجامعة[1]. وعلى الرغم من أن الجدال في مختلف مسائل التعاليم المسيحية، قد استمر

١- لكن المونوفيزية بقيت موجودة، وقد رأى هؤلاء أن طبيعة يسوع الإلهية قد جمّت طبيعته البشرية: كان هذا ولا يزال هو موقف الكنيسة الأرمنية.

لـزمن طويـل آخـر، إلا أن الـكنيـسة المتحالفـة مـع الأبـاطرة المـسيحيين، نجحـت في الـسيطرة علـى الوضـع العـام في الإمبراطوريـة وفي أواخـر القـرن ٤م منـع الإمبراطـور ثيودوسـيوس الـديانات الوثنيـة كلّهـا علـى أراضـي الإمبراطوريـة. لقـد انتهـى عـصر المسيحية المبكرة التي قطعت طريقاً طويلة من التطور المتواصل: من جماعة صغيرة من أتباع يسوع، إلى كنيسة قوية جبارة.

الإمبراطور ثيودوسيوس
لوحة فضية نافرة